هلوسات..و مازال الحريق ناشباً فينا

28-8-2003

عادت الأمة إلى هويتها بعد أن ظن الكثيرون أنها انتهت وأصبحت أحاديث، فلقد أعاد أبناء القدس بدمائهم وأشلائهم إلى الأمة شيئا من شرفها المهان بيد حكامها، ودمها المسفوح بيد أعدائها، لأنها أمة تتمتع بخصوصية استثنائية وخاب وخسر المنظرون للحداثة والتغريب والتهميش، انها أمة تحمل في صدور أبنائها بذور الحق التي ماتلبث أن

بقلم نوال السباعي

الزحمة خانقة، والسرداب يضيق، والوهن اللزج العفن يملأ المكان برائحة واخزة قاتلة، والعتمة تعمي وتصمّ، وفي آخر المتاهة بصيص نور باهت ضعيف لايكاد يبين، الكل يلعنون الظلام والاكتظاظ والقاذورات..وقليلون يجاهدون مستميتين ضدّ هذا الموات، يزحفون تحت ثقل تلك الكتلة البشرية الجاثمة علي قدرها تقتات جلد الذات ولاتتحرك، يتشبثون بالأرض ويتقدمون ببطء، يحفرون الجدران القذرة بأظافرهم ليتركوا معالم علي الطريق للآتين من خلفهم، لكنهم يمضون مصممين علي المضي نحو كوة النور تلك ومهما كان الثمن!.

خمسة وثلاثون عاما مضت..والأقصي مازال يحترق... هنا في القلوب يُحيل الصدور الي غابات من نار، وتطيش العقول بهلوسات من الآلام المتصلة، لم تبدأ بذلك الحريق ولن تنتهي قطعاً باستشهاد "اسماعيل أبو شنب".

الأباتشي تضرب وتحرق وتقتل،صواريخ الغدر والعدوان والارهاب تخترق صدور المجاهدين المنافحين وحدهم عُزلاً عن شرف هذه الأمة, ونحن نعقد قمماً مع العدو حيناً ونستعد لاستقبال "نتنياهو" في قلب الخليج العربي تارة أخرى.

الأقصي مازال يحترق بعد خمسة وثلاثين عاماً، لكنه وعلي الرغم من الحريق عاد إلينا بعد غياب، عاد إلى الضمير الجماعي لهذه الأمة، عاد الي تاريخها وجغرافيتها، رغم أنف كل الذين يريدون لوعيها أن يغيب ولايمانها أن يتزلزل ولهويتها أن تذوب.

هذه الجماهير الهائمة علي وجهها والتي يُعنفها رجال الأمة اليوم أن خرجت مهووسة بالسوبر ستار، هي نفسها التي هبّت بالأمس القريب يوم فسح الاعلام العربي للانتفاضة جزءا بسيطاً من دوائر بثه، هذه الجماهير هي نفسها التي حملت القدس هماً وألماً وقضيةً يوم غلطت فضائياتنا وبثت "زهرة المدائن"، و " أصبح عندي الآن بندقية"، هذه الجماهير غير غائبة عن القضية ولكن إعلام حكوماتنا هو الذي يريد لهذه الأمة أن تنسي ولكنها لم تنس ولن تنسي.

عادت الأمة إلى هويتها بعد أن ظن الظانون أنها انتهت وأصبحت أحاديث، فلقد أعاد أبناء القدس بدمائهم وأشلائهم الي الأمة شيئا من شرفها المهان بيد حكامها، ودمها المسفوح بيد أعدائها، لأنها أمة تتمتع بخصوصية استثنائية وخاب وخسر المنظرون للحداثة

والتغريب والتهميش، انها أمة تحمل في صدور أبنائها بذور الحق التي ماتلبث أن تُنتش نخيلا يطرح ثمرا وفيئا وخيرا كلما سُقيت ولو بقليل من ماء الحق المحرومة منه بسطوة الاعلام كما بسلطة الزنازين والتعذيب، انها أمة واحدة تحمل هماً واحدا وألماً واحدا، ذات رسالة خالدة أخطأ من سلخها من هويتها الأساسية التي قامت عليها أصلا..
مسيحيوها مسلمو الثقافة ومسلموها قوميو اللسان وأقوامها علي اختلاف مشاربهم ولغاتهم يعشقون القدس التي تلمهم وتضمهم جميعا ,وعند كل فجر جديد يلتقي شتات هذه الأمة علي حب القدس ومعابدها العتيقة.
الأقصي مازال يحترق، والأفعي الأخطبوطية مازالت تتغذي كأعداء "هاري بوتر" علي دماء الأبرياء، و"سيد الخواتم"...يرسل ملوكه الأشباح يمتطون صهوات جياد شيطانية سوداء، تحاول البحث عن ذلك الخاتم الأخير الذي يحمله فتي صغير حافي القدمين ضعيف، لكنه وحده علي ضعفه ,القادر علي الوقوف في وجه أولئك الوحوش من مصاصي الدماء تضطرب في عروقهم شهوات السلطة والسيطرة علي العالم، وحده تارة ذلك الفتي يمسك بالخاتم، وتارات أخري يقف معه الشرفاء الأوفياء الأخيار، وجنيّة عرابة تستصرخ جياد الأمل فتنهض علي حين غرة من نهر رقراق كان ينساب صفاء وهدوءا،فاذا بعفاريت الخير تنبثق من ذلك السكون وتولد الصافنات الجياد مثيرة جبالاً من الغضب في وجه أغوال الخوف والرهبة، فتحمل العرابة ذلك الفتي الذي بيده وحده انقاذ العالم من سرطانات الحقد الأسود الذي يريد أن يمدّ حدوده من النهر الي النهر ومن البحر الي البحر قائما علي الكراهية والتدمير والاستيطان الاستئصالي، متمادية ملوكه في القتل والذبح والسلخ والهدم والتشريد والقهر.
والأقصي يحترق..قلبوا كل الحقائق أباطيل، جعلوا من المجاهدين ارهابيين، ومن الفدائيين انتحاريين، ومن الثوار قتلة مارقين، ومن الأحرار متخلفين رجعيين، وبحثوا لكل مفخرة عن منقصة، ولكل ميزة عن جُبّ يبتلعها في غيابات عمليات غسيل العقول العالمية، كسروا كل موازين الحق، وانتهكوا كل شرف المواثيق الانسانية، وجاؤوا يقولون أننا شرّ أمة أخرجت للناس !!.. لكنها الانتفاضة، انتفاضة الأقصي وحدها، بقيت المُنتَج العربي الوحيد الذي صدّرناه الي كل شعوب الأرض وببراءة اختراع لايختلف عليها اثنان، وبجدارة من يستطيع أن يُسمع الصمّ، صدّرنا انتفاضة الأقصي الي عالم أُريد له أن يغلق قلبه دون الحق، عن أصوات الألم البشري، عن آهات المظلومين، عن نحيب العذراء وهي تري فلذة كبدها يرتفع نحو السماء وكل من حوله كفروا به أو خانوه أو كادوا.
صار الحجر بيد كل مظلوم وثائر وحرّ في عالم الاعلام الموحد والفكر الموحد والرؤية الموحدة، في عالم "هاري بوتر"، و"سيد الخواتم" اللذين لم يقدما لأطفال العالم الا نسخة منقحة ومصححة عن معركة الحق مع الباطل ,وانقلب السحر علي الساحر وبقي الحق حقاً واضحاً كالفجر الأبلج ينتصر بيد طفل أعزل قُتل والداه ظلماً وهُدمت داره علي يد الشيطان ظلماً، وبقي الحق في خاتم من نار يقبض عليه "فرودو" الصغير البسيط حافي القدمين، الذي أُخرج من داره ظلماً وجاب الأرض طلباً لنصرة الحق وحده حيناً وبمساعدة الأخيار الأبرار حينا آخر، من قال بأن "هاري بوتر " كان فلسطينياً ؟،من هذا الذي يدّعي أن "فرودو" أخذ الخاتم من "محمد الدرة" ؟؟!!..من جعل من

الكوفية الفلسطينية رمزاً عالمياً لكسر القيود والتمرد علي الظلم ولو كان ذلك اغلاق مصنع صغير لبسكوت "الكويتارا" في قرية صغيرة من قري اسبانية ؟؟،من قال أن أهل الحق ليسوا أقارب وأولاد عمومة ؟!.
القافلة تمضي وفي قلوبنا لايهدأ الحريق، الأفعي فاغرة فاها تريد المزيد من الدماء، والأبرار الأبطال الأوفياء يقاتلون واقفين وحدهم بصمود الجبال وشموخ السحاب، والقافلة تسير لاتأبه بعواء الكلاب ولاالذئاب، من هذا الذي يستغرب أن يعشق السوري فلسطين؟ من هذا الذي ينكر أن فرق الفدائيين الاستشهاديين من المغاربة كانت قد تهافتت لتفدي الأقصي بالروح والدم ؟ من هذا الذي يريد أن يمنع السعوديين والكويتيين من التفكير في افتداء الأقصي الأسير ؟ من هذا الذي يريد أن يخفي تاريخ البوسنيين والشيشان الذين جاؤوا لمساعدة العرب في قتال البريطانيين لانقاذ القدس؟.
القدس في قلوبنا ماتزال تعيش وحريق المسجد الأقصي وبعد خمسة وثلاثين عاما مازال يشتعل في النفوس والعقول والأرواح، الحدود ستسقط بسقوط المستبدين الذين يتغذون علي تكريسها، والحق لا يموت أبدا ومهما اجتمعت الإنس والجن علي قتله وذبحه وتشويهه وتقطيع أوصاله ودفنه تحت ألف ركام متفسخ، فإن للحق قدرة عجيبة مخيفة علي أن يمزق أكفانه ويلم أحشاءه وينهض ويبعثر التراب عن جسده المنهك ويمشي فوق الجرح ويفاجئ العالَم كذلك الغلام الذي ارتجف الجبل بقاتليه وأتي الملك يمشي سالما غانما.
الزحمة خانقة والسرداب يضيق والعتمة تعمي وتصمّ، والمسجد الأقصي مازال يحترق بعد خمسة وثلاثين عاما، أهل القدس يهرولون لاطفاء الحريق بأكفهم العارية، بأجساهم المنهكة، بأرواحهم الغالية بدمائهم العزيزة، ونحن...لم نمت بعد، سنبقي..هاهنا نشق الجدران الصماء بأظافرنا نحفر معالم للآتين من ورائنا، لأطفالنا، سنوقد في صدورهم شمعة من نيران الأقصي تجعلهم يعرفون الطريق من بعدنا، تحملهم الأمانة العظمي التي بقيت في أعناقنا..قليلون يجاهدون مستميتين ضدّ هذا التيار، يزحفون تحت ثقل هذه الجبال من التخاذل والخيانات، يتشبثون بالأرض، يحفرون في الجدران العفنة معالم للطريق، مصممين علي المضي نحو كوة النور ومهما كان الثمن.